المحاضرة الرابعة: الجزائر أثناء الحرب العالمية الثانية1939-1945)

مع اعلان الحرب العالمية الثانية سبتمبر 1939، طرأت ظروف استثنائية وإجراءات أمنية أدت إلى توقف الجمعيات والأحزاب عن نشاطها العادي، فقادة حزب الشعب القدماء كانوا في السجن والمنفى، وجريدتهم في فرنسا صودرت، واضطرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى وقف جريدتها (البصائر) وأوقف "ابن باديس" مجلته (الشهاب) حتى لا تنشر كلتاهما ما يخالف مبادئ الجمعية. ولم يلبث "ابن باديس" أن أدركته الموت (16 أفريل 1940)، بينما فرضت الإقامة الجبرية على نائبه "الإبراهيمي" في آفلو (بالهضاب العليا). وقد خالف "العقبي" زملاءه فأصدر جريدة (الإصلاح) لأنه كان على تنافر مع إدارة جمعية العلماء، وتقلص نشاط المدرسين في المدارس الحرة إلى الحد الأدنى، أما النواب فقد خفت صوتهم أيضا. فقد تجند الدكتور "ابن جلول" و "فرحات عباس" وأمثالهما للدفاع عن فرنسا الديمقراطية، وتجمد النشاط السياسي للنواب. واضطرب حال الشيوعيين تبعا لموقف موسكو من الحرب فإذا تحالف ستالين" مع "هتلر" سلط عليهم الفرنسيون الاضطهاد، وإذا تحالف مع "تشرشل " و "رزفيلت" رفع عنهم الاضطهاد ونشطوا ودخلوا في لجنة فرنسا الحرة بقيادة الجنرال

ديغـول"[1] وكـان حـالهم كحـال اليهـود تقريبـا. فعنـدما أصـبحت الجزائـر تابعـة لنظـام "فيشـي[2] بقيـادة المارشـال "بيتـان[3] رفعـت الجنسـية الفرنسـية عـن اليهـود وعوملـوا معاملـة الأهـالي الجزائـريين (الأنـدوجين) كمـا كـانوا قبـل 1870، ولكـن عنـدما نـزل الحلفـاء بـالجزائر ومعهـم لجنـة فرنسـا

---

[1]– شارل ديغول Chales De Gaulle؛ (1890 – 1970) تخرج من مدرسة سان سير العسكرية، في عام 1911، وعمل خلال الحرب العالمية الأولى تحت قيادة المارشال بيتان (Petain)، بدأ نجم ديغول يلمع بعد استسلم فرنسا أمام هتلر عام 1939، إذ حمل لواء مواصلة القتال والمقاومة بالتعاون مع بريطانيا التي اقام فيها خلال الحرب ما يعرف باسم اللجنة الوطنية لفرنسا الحرة) وبعد تحرير فرنسا عاد ديغول ليصبح رئيس الحكومة المؤقتة فيها، ثم استقال عن الحكم ثم عاد من جديد سنة 1958 على إلى الحكم على اثر انقلاب كبار ضباط الجيش الفرنسي بسبب الثورة الجزائرية، حيث تسلم مقاليد الحكم ورئاسة الجمهورية الفرنسية الخامسة التي وضع أسسها، استقال من الحكم عام 1969. أنظر: عبد الوهاب الكيالي، مرجع سابق، ج2، ص: 742.

[2]– (Vichy)؛ حكومة فرنسية متعاونة مع الاحتلال الألماني استمرت من 1940 إلى 1944 واكتسبت اسمها من منتجع فيشي الواقع جنوب فرنسا الذي اتخذته عاصمة، وكانت سلطة هذه الحكومة بزعامة المارشال بيتان (Petain)، وتشمل القسم الجنوبي من فرنسا والذي أحجمت قوات هتلر عن احتلاله بعد الهدنة التي وقعها المارشال بيتان في 22 جوان 1940، اتخذها بيتان مقرا لحكومته شبه الفاشية التي أعلنت نهاية الجمهورية، وحلت اتحادات العمال واتبعت سياسة موالية لدول المحور في الداخل والخارج وايدت التعاون الكلي مع الاحتلال الألماني. أنظر: عبد الوهاب الكيالي، مرجع سابق، ج4، ص: 679.

[3]– المارشال بيتان، هنري فيليب Petain, H . p (1856 – 1951) في الحرب العالمية الأولى أوقف زحف الألمان عند فردان، كما قاد الحملة الفرنسية الاسبانية سنة 1926 ضد المقاومة في المغرب بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي وتمكن من الانتصار عليها، عين من 1939 إلى 1940 سفيرا في اسبانيا، خلف بول رينو (Paul Renaud) في رئاسة الوزراء في الوقت التي كانت فيه فرنسا على وشك الانهيار أما ألمانيا، التي وقع معها هدنة في شهر جوان 1940، تقلد بيتان منصب رئيس دولة في فيشي، عقب نهاية الحرب العالمية الثانية حوكم بتهمة الخيانة وصدر في حقه حكم الإعدام عام 1945 لكن ديغول أبدل الحكم إلى السجن مدى الحياة. أنظر: عبد الوهاب الكيالي، مرجع سابق، ج1، ص:635.

الحـرة ضـغط الأمريكيـون علـى الجنـرالين "جيـرو"[1] و "ديغـول" فأعـادا إلـى اليهـود الجنسـية الفرنسـية، كمـا أدخـل "ديغـول" الشـيوعيين فـي حكومتـه المؤقتـة، فـالحرب العالميـة فـي الواقـع أفـادت كـل الأطـراف إلا الجزائـريين، فقـد اتفـق الجميـع علـى إهمـالهم وباضـطهادهم رغـم خـدماتهم العسـكرية وتضـحياتهم الجسـيمة علـى الجبهـة الأوروبيـة ومساهمتهم في تحرير فرنسا نفسها ومعاناتهم الاقتصادية.

- موقف الجزائريين من الحرب:

لقـد تجنـد الجزائريـون للحـرب تحـت طائلـة قـانون التجنيـد الإجبـاري، وسـيقوا أفواجـا مـن جميـع الطبقـات إلـى مختلـف الجبهـات الفرنسـية الألمانيـة. وقـد اقتنـع الكثيـر مـنهم تحـت الدعايـة الفرنسـية والغربيـة عمومـا أن الحـرب كانـت مـن أجـل انتصـار الديمقراطيـة ضـد النازيـة والفاشـية، وأنهـا تعنـي فـي النهايـة إعطـاء الحقـوق للشـعوب المسـتعمرة. وبالإضـافة إلـى الدعايـة الفرنسـية كانـت هنـاك دعايـة مضـادة ألمانيـة وإيطاليـة تخبـر الجزائـريين بـأنهم سـينالون حـريتهم إذا أيـدوا قضـية المحـور، وذهـب بعـض الـوطنيين فـي حـزب الشـعب وفـي غيـره إلـى الاقتنـاع بهـذه الأطروحـة ومـالوا إلـى التعـاون مـع المحـور - بالخصـوص ألمانيـا - مـا دامـت تعـد بـالتحرير والمسـاعدة ضـد فرنسـا.

---

[1]- هنري أونوريه جيرو Honore Giraud Henri (1879- 1949) جنرال فرنسي كان إلى جانب الجنرال ديغول شريكا على رئاسة اللجنة الوطنية لفرنسا الحرة). أنظر: الهيثم الأيوبي، الموسوعة العسكرية، المؤسسة العربية للنشر، الأردن، 2007، ج 2، ص: 250.

ولكـن "مصـالي" رفـض هـذه الأطروحـة وحكـم بفصـل أعضـاء حزبـه الـذين خـالفوا عنـه. وتعامـل بعـض الطلبـة الجزائـريين فـي تـونس مـع المحـور أيضـا سـيما بعـد نـزول القـوات الإيطاليـة والألمانيـة بهـا وتعاونهـا مـع المنصـف بـاي تـونس.[1] حكـم نظـام فيشـي فـي فرنسـا ابتـداء مـن شـهر جـوان 1940 واضـطرت الأوضـاع فـي الجزائـر تبعـا لـذلك حتـى بـين الفرنسـيين أنفسـهم، إذ كـان فـيهم مـن يؤيـد المارشـال "بيتـان" وفـيهم مـن يؤيـد الجنـرال ديغـول"، وفـيهم مـن يؤيـد "دارلان"[2] فـي انتظـار الفرصـة المواتيـة بعـد أن كثـرت الجوسسـة والمـؤامرات فـي الجزائـر بـين الفرنسـيين أنفسـهم اسـتعداد لنـزول الحلفـاء فـي نـوفمبر 1942. وقـد تغيـر الحكـام العـامون للجزائـر عـدة مـرات فـي ظـرف قصـير، وسـاءت الأحـوال الاقتصـادية لأن الحـرب قـد جففـت خيـرات الـبلاد بنقلهـا إلـى أوروبـا. وكثـرت المضـاربات وقلـت المـواد الغذائيـة فـانقطع السـكر والشـاي والقهـوة والـدقيق وجـاء (عـام الأرز) أو عـام الشـر، وهـو الفتـرة التـي عـرض فيهـا القمـح المحلـي بـالأرز المسـتورد كمـادة أساسـية للاسـتهلاك، علامـة علـى الـنقص فـي الغـذاء، لأن

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، خلاصة، مرجع سابق، ص ص: 127– 128. حول الموضوع أكثر أنظر: عبد الحميد زوزو، الفكر، مرجع سابق، ص: 593.

[2]– فرانسوا دارلان Francois Darlan؛ (1881 – 1942) قائد الأسطول الفرنسي (1939 – 1942)، ثم أصبح وزيرا للأسطول التجاري والعسكري في وزارة المارشال بيتان في جوان 1940، أصدر قراره بإغراق الأسطول الفرنسي بلا من الاستسلام إلى دولة الأجنبية، في ديسمبر أصبح نائب رئيس الوزراء، قابل هتلر مرتين ووافق بالسماح لألمانيا بدخول موانئ بنزرت التونسية، مات مقتول يوم 24 ديسمبر 1942. أنظر: عبد الوهاب الكيالي، مرجع سابق، ج2، ص:642.

عامة الناس غير معتادين على أكل الأرز قبل ذلك، كما انقطع القماش والملابس وكسدت التجارة إلا ما كان من التهريب والمغامرات، وكثرت الأمراض ومنها التيفوس[1] الذي ضرب الناس بقوة وتسبب في مقتل الآلاف.[2]

- بيان فيفري 1943:

بعد سقوط فرنسا سرح الكثير من الجزائريين، ومنهم "فرحات عباس"، فرجع إلى الجزائر للممارسة الصيدلة والسياسة، وكان "عباس" قد أحس وهو في فرقة الصيادلة بالجيش، بالتمييز العنصري بين زملائه الفرنسيين، وكان يبحث عن طريقة الدخول المجال السياسي مستقلا بعد أن جرب حظه خلال الثلاثينات في ظل "ابن جلول" الذي يبدو أن الركب الآن قد فاته. تحرك "عباس" فأرسل رسالة إلى المارشال "بيتان" يلفت فيها نظره إلى وضع مواطنيه الجزائريين، وكان تحركه هذه المرة منفردا خلافا لما حدث أيام المؤتمر الإسلامي فالقيادات الوطنية كلها غائبة إلا هو، وكان لابد للميدان من فارس.

كان الحلفاء – بقيادة أمريكا وبريطانيا – يعدون بتطبيق مبادئ الميثاق الأطلسي وميثاق الأمم المتحدة الجديد. ورأى فرحات عباس

---

[1]– مرض حمى المستنقعات.

[2]– أبو القاسم سعد الله، خلاصة، مرجع سابق، ص ص:129 – 130.

وأمثالـه بريـق الحريـة والديمقراطيـة فـي تصـريحات الحلفـاء وميثـاقهم، وكـان هـو بطبعـه ميـالا للغـرب ومقتنعـا بالليبراليـة ومبـادئ الثـورة الفرنسـية، فـرأى مسـتقبله السياسـي مرهونـا بالتعـاون مـع القـوى الجديـدة، أليسـت فرنسـا الحـرة والديمقراطيـة أيضـا مـن ضـمن هـذه القـوى الواعـدة ؟ ورغـم وجـود "مصـالي" فـي السـجن وتقييـد حريـة "الإبراهيمـي" وابتعـاد "ابـن جلـول" عـن السـاحة، فـإن "عبـاس" اغتـنم فرصـة نـزول الحلفـاء بـالجزائر يـوم 8 نـوفمبر 1942 وأخـذ يـوالي الاتصـالات بممثلـيهم السياسـيين، ولا سـيما "روبـرت مـورفي" الأمريكـي، و المـاكميلان" الإنجليـزي، وكـان يرغـب فـي معرفـة مـوقفهم مـن مصـير الشـعب الجزائـري، وكـان يطلعهـم علـى مـا لهـذا الشـعب مـن امكانـات المسـاعدة قضـية الحلفـاء إذا وعـده بالحريـة ورفـع كـابوس الاسـتعمار عنـه، ولكـن الحلفـاء علـى لسـان ممثلـيهم كـانوا يقولـون أنهـم جـاءوا للحـرب ولـيس للسياسـة، وأنهـم قـد وعـدو الإمبراطوريـة الفرنسـية بعـدم المسـاس بوحـدتها، وعلـى أي زعـيم أو حـزب يريـد شـيئا مـن الحلفـاء أن يتوجـه إلـى السـلطات الفرنسية بعـد تحريـر فرنسـا. ومـع هـذا الـرد المثـبط، فـإن "عبـاس"، بتشـجيع مـن "أوغسـطين بيـرك "[1] (مسـؤول الإدارة الأهليـة فـي الجزائـر) عـزم علـى كتابـة بيـان باسـم الشـعب الجزائـري وتقديمـه إلـى الحلفـاء، وقبـل أن يفعـل ذلـك استشـار زمـلاءه النـواب فـي مجلـس الوفـود الماليـة برلمـان الميزانيـة)، وزمـلاءه السياسـيين المعتقلـين، فـزار

[1]– مسؤول الشؤون الأهلية الفرنسية في الجزائر، أنظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة، مرجع سابق، ص: 205.

"مصالي"، وتشاور مع قادة العلماء، وتوصل معهم إلى نقاط أساسية ليضمنها البيان وتعبر عن استعداد الجزائريين التضحية مع الحلفاء.[1]

ومما تضمن البيان من مطالب رئيسية ما يلي: - إدانة الاستعمار والغائه، أي تحريم استغلال شعب من طرف شعب آخر وتحريم إدماجه وضمه عنوة. - تطبيق تقرير المصير لجميع الشعوب الصغيرة منها والكبيرة. - منح الجزائر دستورا خاصا بها. - المشاركة الفورية والفعالة للمسلمين الجزائريين في حكومة بلادهم. - إطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين من جميع الأحزاب.[2]

صاغ عباس البيان وقدمه في شهر فبراير 1943 إلى ممثلي الحلفاء ومن بينهم الفرنسيون، إضافة إلى نسخة للحكومة المصرية. وباقتراح من "بيرك ذيل عباس البيان بملحق تطبيقي. ولكن الحلفاء لم يلبثوا أن رحلوا عن الجزائر لتحرير إيطاليا ثم فرنسا، وبقيت الجزائر مقرا للجنة فرنسا الحرة بقيادة ديغول.[3]

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، خلاصة، مرجع سابق، ص ص: 131 - 132.

[2]- للاستزادة أكثر حول البيان أنظر: فرحات عباس، مصدر سابق، ص ص:113-114. وأيضا: محفوظ قداش تاريخ الحركة، مرجع سابق، ج2، ص ص :918-920.

[3]- أبو القاسم سعد الله، خلاصة، مرجع سابق، ص:132.

- حركة أحباب البيان والحرية (14 مارس 1944 - 8 ماي 1945)

بعد عام من ذلك تطورت مبادرة فرحات عباس من البيان الذي لم يلق تفاعلا لا من الحلفاء ولا من الفرنسيين إلى مطلب تكوين حزب وطني كبير، وهو ما تحقق بظهور (حركة أحباب البيان والحرية) يوم 14 مارس 1944 ضمت إلى جانب صاحب المبادرة وأنصاره من النواب حزب الشعب الجزائري، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد موافقة على التوالي كل من "مصالي الحاج" والشيخ "البشير الإبراهيمي". فحين لقيت الرفض من الشيوعين والعداء فأنشأوا لها جمعية منافسة أطلقوا عليها اسم أحباب الديمقراطية.

تكونت حركة أحباب البيان والحرية بهدف الدفاع والتعريف ببيان الشعب الجزائري، لكنها من جهة أخرى كانت تهدف من خلال قانونها الأساسي إلى جعل فكرة الأمة الجزائرية بسيطة وإقامة جمهورية جزائرية متحدة مع فرنسا. أما في نظر حزب الشعب الجزائري فكانت وسيلة لإقناع المترددين وفئة المثقفين بصحة أطروحاته وجلب اهتمام الجماهير العريضة المتحفزة للتجنيد، فاستطاع الحزب بفضل مناضليه الذين تلقوا الأمر من الحاج

مصالي بالانخراط في الحركة وأن يشغلوا منصبي المالية والأمانة العامة في جميع الفروع المحلية.[1]

وأصبح "فرحات عباس" هو الزعيم لهذه الحركة، وأنشأ لها صحيفة بالفرنسية سماها "Egalité" (المساواة)، وافتتح لها باب الانخراط فتهاطل الأعضاء عليه حتى وصلت العضوية فيها في أقل من سنة إلى حوالي نصف مليون نسمة، واشتدت لهجة الخطباء وكثرت الاجتماعات، وكان عجز الفرنسيين قبل تحرير بلادهم ومرور الحلفاء بالجزائر وأخبار الحرب الواعدة بتقرير المصير لمن يساعد الديمقراطية على الانتصار، كل ذلك شدد من لهجة زعماء أحباب الحرية. وكانت الآذان الفرنسية لم تألف هذه التحديات سيما وقد علموا أن أعضاء حزب الشعب المنحل ضخموا صفوف التنظيم الجديد، وكان الفرنسيون يعلمون أن هذا الحزب يؤمن بالاستقلال الكامل. فاقتنعوا أن هناك مؤامرة تدبر ضد الجزائر الفرنسية يحيكها المتطرفون من أعضاء حزب الشعب الذين اندسوا في التجمع ويدعمها أعداء فرنسا من الخارج، ولم يستبعد الخيال الفرنسي الاعلامي حتى أصدقاءهم الأمريكيين والبريطانيين، فما بالك بالألمان والإيطاليين، وبعد إنشاء الجامعة العربية (مارس 1945) أضيف اسمها إلى قائمة أعداء فرنسا.

---

[1]– محفوظ قداش، تاريخ الحركة، مرجع سابق، ص:948. وأيضا: أجرون، ، تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871، مرجع سابق، ص ص ص: 921–922–923.

ازدادت حدة لهجة أحباب البيان والحرية يوم أعلن الفرنسيون (مارس 1944) بقيادة "ديغول" أنهم سيكافئون النخبة الجزائرية على خدماتها بتطبيق مشروع "فيوليت بلوم" الذي هزم في الثلاثينات، وذلك بمنح المواطنة الجنسية الفرنسية لعدد من أفراد النخبة الاندماجية دون مطالبتهم بالتخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية، ورأى بعض الجزائريين أن ذلك يعد استهتار بتضحياتهم في الحرب ومطالبتهم بالاصطلاحات السياسية، وتذهب الروايات الفرنسية أن "فرحات عباس" لم يعد قادرا على التحكم في تجمع أحباب البيان والحرية لكثرة وتطرف من دخله من الشباب، وكانت لجنة فرنسا الحرة قد انتقلت إلى باريس بعد تحريرها، وبقي الجزائريون وجها لوجه مع غلاة الأوروبيين والإدارة القديمة الذين لا يطيقون سماع أصوات الجزائريين تنادي بالحرية.[1]

إن حركة أحباب البيان والحرية كانت واجهة تجمع حولها العلماء والمنتخبين والعلماء ومناضلي حزب الشعب الجزائري، كانت حركة ضمن إطار القانون يمكن لجميع الجزائريين أن ينتسبوا، فزادها العلماء وحزب الشعب ديناميكية كبيرة، ومنها جهتها استفاد منها الأخير من غطائها القانوني لهيكلة أكبر قدر ممكن من المناضلين في صفوفه من جهة، وخوض حملة وطنية شديدة ضد الاستعمار

[1]- أبو القاسم سعد الله، خلاصة، مرجع سابق، ص ص: 133 - 134.

الـذي يبقـى طريـق العمـل المسـلح هـو الطريـق الوحيـد الكفيـل للـتخلص منه من جهة أخرى.

فكـان حـزب الشـعب علـى هـذا الأسـاس يترسـخ أكثـر فـأكثر كحـزب طلائعـي لحركـة أحبـاب البيـان الحريـة، التـي ضـمت تيـارين؛ تيـار معتـدل وتيـار متطـرف كانـا مصـدر لعـدم التفـاهم، تيـار معتـدل يأمـل فـي تفهـم السـلطات الفرنسـية، لضـرورة الحـوار مـع أحبـاب البيـان والحريـة لإيجـاد تسـوية مشـرفة ضـمن إطـار النظـام الفيـدرالي المنشـود. وتيـار متطـرف يمثلـه حـزب الشـعب الجزائـري الـذي لـم يكـن يـؤمن بواقعيـة إدارة عميـاء بأحكامهـا المسـبقة يسـيطر عليهـا المتطرفـون الكولـون، فكـان يتشـدد أكثـر فـأكثر فـي موقفـه ويتحـدث بشـكل خـاص عـن الاسـتقلال، وهـو الخـلاف الـذي ظهـر بـين التيـارين فـي مـؤتمر شـهر مـارس 1945 الـذي رجـح سياسـة حـزب الشـعب الجزائـري مـن خلال ما خرج به من مطالب جاء كما يلي:

- الاعتراف بالجنسية الجزائرية.
- إعداد دستور جزائري ديمقراطي جمهوري.
- استبدال المجالس الجزائرية ببرلمان منتخب.
- استبدال الحكومة العامة بحكومة جزائرية.
- الاعتراف بالعلم الجزائري.

كمـا صـوت المـؤتمر أيضـا علـى مـذكرة تؤيـد إطـلاق سـراح مصـالي الـذي وصـف بـزعيم الشـعب الجزائـري بـلا منـازع، كمـا نجـح حـزب

الشـعب الجزائـري فـي دفـع أحبـاب البيـان والحريـة نحـو التصـلب، فوجـد المعتدلون أن الأمور قد تجاوزتهم.[1]

[1] – محفوظ قداش، جيلالي صاري، الجزائر صمود ومقاومات 1830 – 1962، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012، ص ص:94 – 95.